المـــــذياع الآدمى

للأستاذ عباس محمود العقاد

حالة نفسية غير نادرة ، ولا سيما فى الأيام الفاتحة أو الماطرة .

على الأفق البعيد رباب مسف جاثم ، وفى الجو شوب من ضباب كالغبار يحجب صفاء السماء ، والأشجار هنا وهنالك كأنما تتوارى من الناس ، وعلى النفس سآمة قانعة لا تتحرك كأنها فرغت من النقاش والسؤال عن الأسباب ، وخلصت إلى اليقين والقرار ، وكل شىء عبث ... وكل عمل عقيم . . . ما أشد الدنيا الفاتحة بالباطل ، وما هذا العناء فى غير طائل ؟ باطل الأباطيل ... قبض الريح ... متاع الغرور !

حالة غير نادرة

لكنها لو كانت الحالة الأولى من نوعها لجعلتها فلسفة حياة وصبغت بها وجه الكون ، وبسطتها على الدنيا ، أو قبضت الدنيا حتى انطوت فيها ، وكنت من المتشائمين

لم تكن الحالة الأولى من نوعها ، فلهذا لم تكن فلسفة باقية ، بل كانت حالة عابرة غير نادرة ، واستطاعت النفس أن تنزع منها زاوية صغيرة يهمس فيها هامس مسموع مستجاب : كلا ! ليست الدنيا كذلك . ليست الدنيا كذلك ... إنما هى نوبة تزول ، وركود راحة بعد جهاد ، أو ركود استجمام قبل وثوب

* * *

وحالة أخرى غير نادرة ، ولا سيما فى أيام الاشراق والنضرة والاقبال ، صيفا كانت أو شتاء ، وربيعا كانت أو خريفا . فهى شائعة موزعة بين جميع المواسم والفصول

لمسة الشعاع على الصخرة اللقاة تبعث الفرح من أعماق السريرة ، ورجفة الورقة على الغصن رقص وانتشاء ، ومشية المسرع استطارة سرور ، ومشى المتأنى فكأنه يتملى متعة المشى ويستوفى نعمة الرياضة ، ومنظر الشجرة كأنها باقة تنطلق فى السماء ، وليست بالجامعة المقيدة بالغبراء ، وكل شىء حسن كما هو فى غير حاجة إلى تفسير أو عاقبة منظورة ، وليس فى الامكان أبدع مما كان

حالة غير نادرة

لكنها لو كانت الحالة الأولى من نوعها لجعلتها كذلك فلسفة حياة ونفثتها فى ضمائر الكون ، ورأيت الدنيا معها فردوسا سماويا لا حدود فيه ولا انتهاء لمشاهده ومعانيه ، وكنت فى عليين ولا يغنينى أن أقول : كنت من المتفائلين

ولم تكن الحالة الأولى من نوعها فلهذا لم تكن فلسفة باقية بل كانت حالة عابرة غير نادرة ، واستطاعت النفس أن تملك زمامها وهى إلى جوارها فلا يزال فيها هامس مسموع مستجاب يردد فى غير إلحاح ولا إعنات: كلا . لست فى عليين، لست فى عليين !

* * *

أ إذا عرفنا أسباب الحالة الأولى جاز لنا أن نقول: إنما هى ضلالة فى الحس من أثر الغيم أو من أثر السوداء أو من أثر المعدة الشاكية ؟

كلا . لأن معرفة السبب الذي يريك الشئ لن تنفى وجوده ، كما أن شعورك بألم الآخرين من أجل القرابة بينك وبينهم لا ينفى أنهم متألمون وأن الألم موجود هناك . ثم نقترب من المحسوسات فنقول إن رؤيتك الجراثيم بالمجهر وعلمك بأن المجهر هو سبب الرؤية لا ينفى الجراثيم ولا ينقض صحة ما تراه

وكذلك الحالة الثانية لا يدحضها أن تعلم أسبابها ، وهى الاشراق والصحة وامتناع الأكدار والأحزان ، فان العلم بأسباب إحساس من الأحاسيس لا يقدح فى حقيقته ولا فى صواب الشعور به حيث كان .

* * *

لذلك أقول إن السريرة الآدمية كالمذياع ، وإن الدنيا المحزنة والدنيا المفرحة ودنيا القنوط ودنيا الرجاء موجودة لا تظهر للنفس إلا حين يصل المفتاح إلى وجهته المرسومة ، وإلا فهى صمت وخفاء

فى النفس الانسانية متسع لجميع العوالم ، ولكنها تهيأ لكل عالم من هذه العوالم بحالة من الحالات ، أو بمفتاح من المفاتيح ، فاذا هو موجود مسموع منظور محسوس ، وإذا أنت لا تسمع غيره ولا تعيش فى غيره ، لأن إدارة المفاتيح كلها هى الفوضى التى يبطل فيها الاحساس ، ويفسد فيها التعبير المفهوم ، فهو إذن لغط وأصداء

إن كنت تسمع حديث القاهرة فليس معنى هذا أن حديث باريس باطل ، وإنما معناه أن المفتاح فى هذا الاتجاه وليس فى اتجاه غيره ، وحديث باريس بعد ذلك صادق عند أناس آخرين صدق حديث القاهرة ، وغيره من الأحاديث

وإن كنت فى دنيا من دنياوات الاقبال والتفاؤل فليس معنى ذلك أن دنيا التشاؤم والقنوط عدم وضلال ، وإنما معناه أن المفتاح هنا ، وأنه لو تحول قليلاً لأصبح هناك ! !

* * *

امتناع الحس لا يدل على امتناع المحسوس

وبهذا نفسر البقرية التى ترى الأخيلة والشكول والمعانى والتوفيقات حيث لا يبصرها أحد ولا يسمعها أحد ولا يدرى بها أحد ، ولكنها تظل فى سمتها وخفائها حتى تصادف من يدرى بها ويستمع إليها ، فهى موجودة له ممدومة لسواه

وبهذا نفسر الصوفية التى تلمح من الخفايا ما ليس يلمحه المصابون والجيران ، وتقترب من الآمال والمخاوف قبل أن يقترب منها المزاملون والرفقاء ، وتبصر بعيني « حزام » والناس من حولها ضاحكون لا يصدقون ، وإن قال لهم ألف قائل :

إذا قالت حزام فصدقوها فان القول ما قالت حزام

لأن ما يرى بالعين على مسيرة يوم سوف يرى بالعين على مسيرة ساعة . أما ما يرى بالسريرة فقد تكثر فيه المغالطة والمكابرة كلما اقترب واقترب حتى تتناوله جميع السرائر : أهذا الذى أنبأتنا به ؟؟ لا . إنك أنبأتنا بغير هذا ، ولن تزال فى ضلالك القديم ! !

* * *

ولنهبط من البقرية والصوفية إلى المشاهد الملموسة فى حياة الحيوان .

فأين من الناس من يشعر بأن ملامسة اليد للمنديل تترك فيه أثراً من الرائحة المحسوسة يشمها الأنف بعد أيام ؟ وأين من يثبت لهم ذلك لولا أن شاهدوه وكرروا شهوده من بعض الحيوان ؟ ؟

أفينقض « وجود » تلك الرائحة أن يقول قائل : بل ما أدركها ذلك الحيوان إلا لأنه كلب يشم بحاسة الكلاب ؟

أفينقض « وجود » تلك المعانى والتوفيقات أن يقول قائل : بل ما أدركها ذلك الناظم أو ذلك الموسيقى إلا لأنه مجنون مخبول ؟

فلم لا يكون الخبل المزعوم هو المفتاح الذى يوجه السريرة إلى وجهة تلك المعانى والتوفيقات ؟ ؟ ولم ننكر « المحطة » لأننا لا نملك المفتاح وإن رأينا من يسمعها ويروى لنا ألحانها وأناشيدها فى تناسق وانتظام ؟

فالعالم حافل بما يحس ويشعر

حافل بالمنظورات وإن لم يشهدها كل نظر ، وحافل بالمسموعات وإن لم تسمعها كل أذن ، وحافل بالطعوم وإن لم يذقها كل لسان ، وحافل بالحياة وإن لم تتصل بها اتصال التعاطف والتفاهم كل حياة

فلم لا نقول على هذا القياس إنه حافل بالمعانى ، وحافل بالمدركات ، وحافل بالوحى والتعبير ، وإن البقرى له حاسة فى الروح تلتقط هاتيك المعانى والمدركات من حيث لا يعلم أحد بموقعها هناك ؟ ؟

لم لا نفهم أن المحسوسات الذهنية التى تتناولها البقرية لن تنفد بالتقاط الأذهان منها لأنها ليست بأجسام ، وأن الشىء الذى ليست له مادة تنفد لن يرى على وضع واحد بل يرى على ألوف الألوف من الأوضاع حسب من ينظرون إليه وينفذون فيه ؟

لم لا نكون الدنيا مفرحة محزنة ، عادلة ظالمة ، منظومة مشتتة ، لأن هذه المعانى لا تتناقض فى عالم الالهام كما تتناقض السوداء والبيضاء فى عالم العيان ، وإنما يصعب التوفيق بينهما فى إلهام واحد كما يصعب التوفيق بين مفاتيح المذياع ، فنخرج إذا أدرناها جميعا من الفهم والنظام ، إلى أصداء لا تقبل الفهم ولا النظام ؟

* * *

إذا مرت بى حالة عابرة إلى جانب الحزن والقنوط قلت هى حالة صادقة فى مفتاحها

وإذا مرت بى حالة عابرة إلى جانب الفرح والرجاء قلت هى أيضا حالة صادقة فى مفتاحها

ولم أقل إن العالم السرمدى ينحصر فى هذه أو فى تلك ، ولكنى أتلقى درساً من المذياع وأومن بأن السريرة الانسانية أكبر — على الأقل — من صندوق الكهرباء ، وإن عالم الادراك أكبر — على الأقل — من مراكز الاذاعة ، وأن الوصلة بين الطرفين أكثر على الأقل من الموجات القصار والوسطى والطوال .

عباس محمود العقاد